نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب اليه منها . وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ . قال : « الاعمال بالخواتيم » والمؤمن اذا فعل سيئة فان عقوبتها تندفع بعشرة أسباب (أحدها) أن يتوب توبة نصوحا ليتوب الله عليه ، فان التائب من الذنب كمن لاذنب له (الثانى) أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له (الثالث) أن يعمل حسنات يمحوها لقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) (الرابع) أن يدعوا له اخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً (الخامس) أن يهدله اخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به (السادس) أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ (السابع) أن يبتليه الله فى الدنيا بمصائب فى نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك (الثامن) أن يبتليه فى البرزخ بالفتنة والضغطة وهى عصر القبر فيكفر بها عنه (التاسع) أن يبتليه الله فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه (العاشر) أن يرحمه أرحم الراحمين . فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فى الأحاديث الآلهيات (إنما هى أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . والمقصود أن المؤمن اذا كان يعلم أن القضاء خيراً له فيرضى عن الله بما قسم له ، كان قد رضى بما هو خيراً له ، وفى الحديث ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال : « ان الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط »

﴿ الباب الحادى والعشرون ﴾

(فيما يقدح فى الصبر والرضاء وينافيهما)

قد تقدم ان الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ، وانه حبس النفس عما لا يحسن فعله ولا يجمل ، وحبس اللسان عما لا يحسن قوله ، فاذا كان معنى هذه المقالة ان الصبر حبس اللسان عن الشكوى الى غير الله ، والقلب

عن التسخط ، والجوارح عن لطم الخدود ، وخمش الوجوه ، وشق الثياب ، ونحو ذلك ، وأن العبد يرضى عن الله فيما يفعله به مما يحب وقوعه ، ومما يكره وقوعه ، فاذا وقع من العبد عكس ما ذكرته كان متلبساً بالنقائص والرذائل ، فمن شكا ما به الى مخلوق مثله كان قد شكا ربه الى بعض مخلوقاته ، فمثله كمثل من شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضره ونفعه (الى من لا يرحمه وليس بيده نفعاً ولا ضراً . فهذا من عدم المعرفة وضعف الايمان شكاية الضار النافع الذى بيده أزمة الأمور ، الى من لا يضر ولا ينفع . قال شقيق البلخى : من شكا مصيبة نزلت به الى غير الله لم يجد فى قلبه لطاعة الله حلاوة أبدا . وأما إخبار المخلوق بحاله لا على وجه الشكوى ، فان كان للاستعانة بان يرشده أو يعاونه أو يوصله الى زوال ضره بما ينفعه مما هو اخبر منه به ، كالحجام يحجمه ويقلع ضرسه ، أو رجل صالح يدعوا له ، فهذه الامور على هذا الوجه لم تقدح فى صبره لأن هذا كاخبار المريض الطبيب بحاله (واخبار المبتلى فى جسده ببلائه لمن يرجوا أن يكون فرجه على يديه ، وكذلك اخبار المظلوم لمن ينتصر به ، واخبار المبتلى فى دينه لمن هو مسترشد الهداية ليبين له طرق الهداية ان وفق لها ، وقد ثبت أن النبى ﷺ كان اذا دخل على المريض سأله عن حاله . ويقول : « كيف تجدك » وهو استخبار منه واستعلام بحاله . وأما الأنين فهل يقدح فى الصبر ؟ فيه روايتان عن الامام أحمد ، قال القاضى أبو الحسين : أصح الروايتين الكراهة لما روى عن طاووس انه كان يكره الأنين فى المرض * وقال مجاهد : يكتب على ابن آدم مما يسطر به حتى أنينه فى مرضه انتهى . وقال جماعة من العلماء : الأنين شكوى بلسان الحال فينافى الصبر . وقال عبد الله بن الامام أحمد : قال لى أبى فى مرضه الذى توفى فيه : أخرج الى كتاب عبد الله بن ادريس ، فأخرجت الكتاب . فقال : اخرج أحاديث ليث بن أبى سليم ، فاخرجت أحاديث ليث بن أبى سليم . فقال : اقرأ

على أحاديث الليث. قال قلت لطلحة : إن طاووساً كان يكره الانين فى المرض فما سمع له أنين حتى مات ، فما سمعت أبى أن فى مرضه ذلك الى توفى * والرواية الثانية انه لا يكره ولا يقدح فى الصبر بل قد يقدح فى الرضا . قال بكر بن محمد عن أبيه سئل الامام أحمد عن المريض يشكوا ما يجد من الوجع . فقال : يعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ . قال : نعم ، حديث عائشة ، وارأساه . وجعل يستحسنه وقال المروزى : دخلت على أبى عبد الله أحمد بن حنبل وهو مريض فسألته ، فتغرغرت عينه وجعل يخبرنى ما مر به فى ليلته من العلة * قال العلامة ابن القيم رحمه الله : اعلم ان الأنين على قسمين ، أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله تعالى أعلم *

﴿ فصل ﴾

ومما ينافى الصبر والرضاء ما يفعله أكثر الناس فى زماننا عند المصيبة من شق ثيابهم ، ولطم خدودهم ، وخمش وجوههم ، ونتف شعورهم ، والتصفيق باحدى اليدين على الأخرى ، ورفع أصواتهم عند المصيبة ، ولقد حضرت عند شخص حين فارق الدنيا وهو من الجلد فحين خرجت روحه أتوا بجعبة نشاب فكسروها بمجموعها واحدة بعد واحدة عليه ، وأتوا أيضا بعدة الحرب فرموها عليه ، وأنا مع ذلك أعظهم وأقول لهم : هذا حرام نهى الله ورسوله عن ذلك ، وهذا فيه اضاعة مال . فقال بعضهم لى : لم يصبك ما أصابنا . فخرجت عنهم ، ثم إنهم بعد ذلك ندموا على ما فعلوا من اتلاف ما أتلفوه . ولهذا قال النبى ﷺ : « إنما الصبر عن الصدمة الأولى » لان فى تلك الحالة هيجان الحزن واستغراق الذهن ، وذهول العقل بما دهمه ، وتمكن الشيطان منه ، فان الشيطان لعنه الله دائما يتمكن من بنى آدم عند ذهول عقلهم ، إما بسكر كما وقع فى قصة هاروت وماروت ، وهى مشهورة حين دعتهما المرأة الى قتل الولد ، أو السجود للصنم ، أو شرب القدح من الخمر مراراً

وانهما شربا القدح من المسكر ، فلما شربا سكرا ، فاتيا كلما أمرتهما به . وكذلك ذهول العقل عندالعشق ، وعند الولاية ، وعند كثرة المال ، وعند المصيبة ، فكل هذه الأمور العارضة للعبد فى الغالب يحصل له بها ذهول العقل فيتمكن الشيطان بها منه ، نسأل الله العافية ودوام العافية ، والثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد فان النبى ﷺ كان يسأل الله فى دعائه : « اللهم انى أسألك الثبات فى الأمر » الدعاء المشهور . وكان يقول : « اللهم يامثبت القلوب ثبت قلبى على دينك » فالثبات فى الأمور مطلوب شرعا ، كما أن العبد منهى عن الامور المذمومة من اللجاج والطيش ، والعجلة والحدة ، وافتقاد الحزن وغير ذلك من الامور المذمومة التى لاأحصيها عدداً وبحاً ، لمن يقدم على الله تعالى مع هذه الامور المذمومة التى نهى الشرع عنها ، غير تائب منها ، معتمداً على صومه وصلاته وحجه وعبادته ، وهو مع ذلك فرح مستبشر كانه قد جاز الصراط وأعطى البراءة وجاءه البشير من الله تعالى بالفوز والخلاص ، ويحاً لمن يغتر باعماله الظاهرة وباطنه مثل المزابل ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق *

﴿ فصل ﴾

وأما البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم ، فهو لاينافى الصبر والرضاء وقد تقدم لنا قريبا من ذلك . قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) . قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً . مع قوله تعالى : (انما أشكوا بثى وحزنى الى الله) وقوله تعالى عنه فى أول السورة (فصبر جميل) وقد جاء فى أثر مرفوع الى النبى ﷺ : « من بث فلم يصبر » لكن يعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من البكاء ولم ينافى حزنه وبكاءه صبره فانه عليه السلام ما شكا بثه وحزنه إلى مخلوق ، وانما شكاه الى الله . وروى حماد ابن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما

عن النبى ﷺ . قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » قال خالد بن أبى عثمان : مات ابن لى ، فرآنى سعيد بن جبير مقنعاً . فقال لى : إياك والتقنع فانه من الاستكانة . وقال بكر بن عبد الله المزنى : كان يقال من الاستكانة الجلوس فى البيت بعد المصيبة . وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السىء ، والظن السىء . ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع اليه العلماء والفقهاء . فذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فاجمعوا انه اذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع * وقال ابن عبدالعزيز : مات ابن لى نفيس . فقلت لامه : اتق الله واحتسبيه عند الله واصبرى . فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : انى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت . فقال : ابنك يقضى وأنت تصلى : فقال : ان الرجل اذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللا فى عمله . وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شىء شارة وأطيبه

﴿ فصل ﴾

ولا بد أن يعلم المصاب أن الذى ابتلاه بمصيبته أنه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وانه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه ، ولا ليجتاحه ، وانما افتقده به ليمتحن صبره ورضاءه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحاً على بابه لائذا بجنابه مكسور القلب بين يديه ، رافعاً قصص الشكوى اليه . قال الشيخ الامام العالم العارف المكاشف عبد القادر الكيلانى رحمة الله عليه لابنه : يابنى ان المصيبة ماجاءت لتهلكك وانما جاءت لتمتحن صبرك و إيمانك ، يابنى القدر سبع ، والسبع لا يأكل الميتة . انتهى كلامه . والمقصود أن المصيبة كير العبد الذى يسبك بها حاصله فاما أن يخرج ذهبا أحمر ، وإما أن يخرج خبثاً كله كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكير عن خبث الحديد

فان لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فاذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لابد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل ، فالعبد اذا امتحنه الله بمصيبة فصبر عند الصدمة الاولى ، كما ورد فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : مر النبى ﷺ بامرأة عند قبر وهى تبكى فقال لها : « اتق الله واصبرى » فقالت : اليك عنى فانك لم تصب بمصيبتى ، ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبى ﷺ فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين . فقالت : لم أعرفك يارسول الله . قال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » رواه البخارى . ولفظ مسلم : أتى على امرأة تبكى على صبى لها . فقال لها : « اتق الله واصبرى » فقالت : وما تبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ، فاخذها مثل الموت ، فاتت بابه فلم تجد على بابه بوابين ، وذكر تمام الحديث *

﴿ فصل ﴾

ومما يقدح فى الصبر والرضاء وينافيهما ، اظهار المصيبة والتحدث بها واشاعتها سواء كان الكلام بها بين الاصحاب أو غيرهم ، اللهم الا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه : مات فلان . يعنى والده أو ولده . ونحو ذلك ، ومايريد به اظهار المصيبة ، وانما يريد اعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك مما هو من فروض الكفايات ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر ، وقد تقدم ان الاعلام بالميت هل هو نعى أم لا ، والمقصود ان كتمان المصيبة رأس الصبر . قال الحسن بن الصباح فى مسنده : حدثنا خلف بن تميم ثنا زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله ﷺ : « من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة » وذكر انه من بث لم يصبر * وروى من وجه

آخر من حديث أنس رضى الله عنه رفعه الى النبى ﷺ . قال : « من كنوز البر كتمان المصائب وما صبر من بث » ولما نزل فى إحدى عينى عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينه التى أصيب فيها فلم يشعر به فعلم أن الشيخ قد أصيب * ودخل رجل على داود الطائى فى فراشه ، فرآه يزحف فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون . فقال : مه لا تعلم بهذا أحداً . وقد أقعد قبل ذلك بأربعة أشهر لم يعلم بذلك أحد * وشكا الأحنف الى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه . فقال : ما تكرر على لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة فما شكوتها الى أحد * ومن المنافاة للصبر والرضاء الهلع عند ورود المصيبة وهو الجزع . قال الله تعالى : (إن الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً) قال الجوهرى : الهلع أفحش الجزع ، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع . وفى الحديث « شر ما فى العبد شح هالع وجبن خالع » قال العلامة ابن القيم رحمه الله : هنا فى هذا الحديث أمران ، أمر لفظى وأمر معنوى ، فاما اللفظى فانه وصف الشح بكونه هالعاً ، والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوعاً ، ولا يقال : هالع له ، فانه لا يتعدى وفيه وجهان (أحدهما) انه على النسب ، كقولهم ليل نائم ، وشر قائم ، ونهار صائم ، ويوم عاصف كله عند سيبويه على النسب أى ذو كذا * (والثانى) أن اللفظة غيرت عن بابها للأزدواج مع خالع وله نظائر . وأما المعنوى ، فان الشح والجبن أردى صفتين فى العبد ، ولا سيما اذا كان شحه هالعاً ، أى مولة فى الهلع ، وجبنه خالعاً ، أى قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سماحة ولا شجاعة . كما يقال : لا يطرد ولا يثرد انتهى كلامه * وروى سعيد بن منصور فى سننه ، حدثنا اسماعيل بن عياش عن سليمان بن سليم عن يحيى ابن جابر أن رجلا أتى النبى ﷺ . فقال : مايحبط الأجر فى المصيبة ؟ قال : « تصفيق الرجل بيمينه على شماله ـ والصبر عند الصدمة الأولى ـ فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط » وذكر باسناده أيضاً رفعه الى النبى ﷺ . قال : « إن القوم ليصابون بالمصيبة فيجزعون ويهلعون فما يكون لهم من أجرها شىء فيمر بهم الرجل

من المسلمين فيسترجع فيكتب الله عز وجل له أجر ما أعطاهم من تلك المصيبة» وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أحمد بن عبد الأعلى حدثني شيخ من آل ميمون ابن مهران أن الحجاج أصيب بابن له فاشتد جزعه عليه ، فدخل فغير ثيابه ومس شيئاً من طيب وجلس ، وأذن للناس فلم يتكلموا . فقال : حسبي ثواب الله من كل نكبة ، وحسبي بقاء الله من كل هالك ، تحدثوا .

﴿ فصل ﴾

والله تبارك وتعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وصبره ورضاءه بما قضاه عليه ، فهو سبحانه وتعالى يرى عباده اذا نزل بهم مايختبرهم به من المصائب وغيرها ، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم ، فيثيب كل عبد على قصده ونيته ، وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه ولا يشكو اليه حاله ، فانه اذا كان سادات الخلائق وهم الأنبياء المعصومون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قد أثنى الله تعالى عليهم حيث شكوا مابهم الى الله تعالى . فقال تعالى عن بعضهم : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن ألن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وأثنى على أيوب بقوله : (إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وعلى يعقوب : (إنما أشكوا بثي وحزني الى الله) وعلى موسى بقوله : (إني لما أنزلت الى من خير فقير) وقد شكا اليه خاتم أنبياءه ورسله بقوله : « اللهم اني أشكو اليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين » الحديث المشهور في دعاء الطائف وهو دعاء عظيم ، فالشكوى الى الله تعالى لا تنافي الصبر ولا الرضاء ، بل إعراض العبد عن الشكوى الى غيره من جهله بخالقه وعدم رضائه وصبره بما ابتلاه الله تعالى به والله تعالى يمقت من يشكوه الى خلقه ، ويحب من

يشكو ما به اليه . قيل لبعضهم : كيف تشتكى الى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؟ فقال :

قالوا أتشكو اليه ما ليس يخفى عليه
فقلت ربى يرضى ذل العبيد لديه

وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن الحسن . قال : قال رجل : لأمتحنن أهل البلاء . قال فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الأكلة أطرافه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حدته من الوجع ، وان ذلك لبعين الله ، أحبه الى أحبه الى الله عز وجل ، وددت ان ربى قطع منى الأعضاء التى اكتسبت بها الاثم وانه لم يبق منى الا لسانى يكون له ذاكراً . قال : فقال له رجل : متى بدأت هذه العلة ؟ قال : أما كفاك الخلق كلهم عبيد الله وعياله فاذا نزلت بالعباد علة فالشكوى الى الله ليس يشكى الله الى العباد *

﴿ الباب الثانى والعشرون ﴾

(هل المصائب مكفرات أو مثيبات)

وقد اختلف العلماء فى هذا الباب اختلافا كثيراً ، وتباينوا فيه تباينا شديداً فذهب بعض العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة ، وذهب طائفة أخرى من العلماء الى أنه لايثاب على المصائب مطلقاً ، وانما يثاب على الصبر عليها ، حتى قطع به ابن عبدالسلام فى قواعده ، وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء الى أن اطلاق القول بالثواب ، واطلاقه بعدم الثواب كلاهما يرد عليه مايدفعه ، وان ثم فرق مؤثراً نذكره فيما بعد ان شاء الله * وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما ذهبت اليه كما سنذكره بعد * احتجت طائفة من العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى :(ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون